مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٣٨) مارس ٢٠١٥م ص ص: ٩ - ٤٢
جامعة سوهاج
كلية الآداب

مقدمات نقدية بين كتابي "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (ت: ٢٣٢ هـ)، و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) دراسة موازنة

د. بهاء محمد محمد عثمان (*)

المقدمة:

يعد كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت: ٢٣٢هـ) مصدرًا أدبيًا ونقديًا، وترجع أهميته إلى ما اشتمل عليه من مقدمة قيمة، تمثل الغرض من تأليف الكتاب، وهو ذكر العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها، من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، وبيان منازلهم، والاحتجاج لكل شاعر بما وجد له من حجة، وما قاله فيه العلماء، وتبين كذلك منهج الكاتب في تناوله الشعر والشعراء، وتعرض أهم القضايا النقدية التي شغلت نقاد هذا العصر.

وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) اشتمل على مقدمة في غاية الأهمية، عرض فيها المؤلف أصول النقد المعروفة في عصره، ومواصفات الشعر والشعراء، وغير ذلك من الآراء والنظريات التي سنعرض لها، كما ركز على الشعراء، وأخبر عنهم، وعن أزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم، وذكر ما يستحسن من أخبارهم، وما يستجاد من شعرهم، وما أخذته عليه جمهرة العلماء من غلط أو خطأ في اللفظ والمعنى دون التزام بترتيب زمني للشعراء، كما أورد ما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون، وقصة "المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذي يص الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقل ذكره المغمورين من الشعراء، ولم يعرض إلا لمن غلب عليه الشعر، معززًا هذا العرض بشواهد شعرية وآراء نقدية لسابقيه ومعاصريه، يستمد منها آراءه الخاصة.

وقد جاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

التمهيد: تحقيق معنى الطبقة ودلالته في درس النقد الأدبي.

المبحث الأول: طبقات فحول الشعراء والشعر والشعراء "الغرض والمنهج".

المبحث الثاني: المقاييس الفنية في ترتيب الشعراء في الكتابين.

المبحث الثالث: أبرز القضايا النقدية في الكتابين.

الخاتمة: وفيها ذكرت أهم نتائج البحث.

وأما المنهج الذي أخذت به في هذا البحث، فهو المنهج الموضوعي المتكامل، الذي يقوم على: الوصف، والتحليل، والاستنتاج، والمناقشة، والاستعانة بالإطار التاريخي، كل ذلك في موضعه.

(*) أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الآداب – جامعة سوهاج.

ولعل محاولتي المتواضعة في الموازنة بين مصدرين من أهم مصادر الأدب وتاريخ الأدب والنقد الأدبي، تكشف عن الجوانب المشرقة في تراثنا النقدي والأدبي، مما يبرز الدور الرائد لنقادنا العرب الأوائل في هذا المجال.

لعل هذه المحاولة تكون قد أفلحت ووفقت في مسعاها، وإلى الله رجائي، أن يجعل البيان والجمال والخير والحق محاور للتعبير الأدبي والسلوك الإنساني. وما توفيقي إلا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل.

التمهيد:

إن مصطلح الطبقة قديم جاء في كل العلوم، ويختص بكل علم على حدة، ويستخدم في معانٍ مختلفة. فقد جاء في لسان العرب: "وطبق كل شيء ما ساواه، وقد طبق مطابقة وطباقا، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة ... وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزمهما، وطبقات الناس في مراتبهم" (١).

وورد في أساس البلاغة: "والناس طبقات: أي منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض" (٢).

فالناس في المكانة الاجتماعية ودرجات متفاوتة في الرفعة والانحطاط، وورد في موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم "الطبقة بالفتح وسكون لغة القوم المتشابهين، وفي اصطلاح المحدثين: عبارة عن جماعة اشتركوا في السن ..." (٣).

وقد وردت في القرآن الكريم مفردة "طبقة" ومشتقاتها في مواضع عدة، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ (٤)، وفي قوله تعالى: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ(١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ(١٩) ﴾(٥). فالطبقة أو الطبق جاء بمعن التطابق، أي أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره.

كما وردت لفظ "طبقة" في الأحاديث النبوية؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: "أمتي على خمس طبقات، كل طبقة أربعون عامًا" (٦).

وهي هنا قد تكون بمعنى الجيل، وقد وردت بمعنى الحال أو المذهب في موضع آخر من قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى، فمنهم من يولد مؤمنًا، ويحيى مؤمنًا، ويموت مؤمنًا،

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة طبق، ص ٢٦٣٦.

(٢) أساس البلاغة، مادة طبق، ص ٥٩٤.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد علي التهانوي، ص ١١٢٥.

(٤) سورة نوح، الآية (١٥).

(٥) سورة الانشقاق، الآيتان (١٨، ١٩).

(٦) سنن ابن ماجة، رقم الحديث ٤٠٥٦ (حديث مرفوع).

ومنهم من يولد كافرًا، ويحيى كافرًا، ويموت كافرًا، ومنهم من يولد مؤمنًا، ويحيى مؤمنًا، ويموت كافرًا، ومنهم من يولد كافرًا، ويحيى كافرًا، ويموت مؤمنًا" [١].

ويُعد الواقدي صاحب المغازي من أ وائل المؤلفين العرب في الطبقات [٢]. وأعقبه تلميذه ابن سعد (ت: ٢٣٠ هـ)، وابن الخياط (ت: ٢٤٠هـ)، حيث جمعوا رواه الحديث ورتبوهم في طبقات في علم مصطلح الحديث، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى علماء اللغة والأدب في أواخر القرن الثاني الهجري، ودفعهم إلى جمع أخبار الشعراء وأحوالهم، وما قيل فيهم من تفضيل لأشعارهم أو ذم"، فالعلماء والنقاد تعرضوا للشعراء وشعرهم، وحاولوا أن يحكموا منهم المقاييس، وحاولوا كذلك أن يرتبوا الشعراء حسب هذه المقاييس في طبقات، ولم يكن الترتيب دائمًا خاضعًا للمقاييس العلمية أو الفنية أو لاختبارات موضوعية، كان كثيرًا يخضع لاعتبارات فردية أو قبلية أو ما إليها" [٣].

من هنا جاءت كتب الطبقات ترجمة للشعراء، وانعكاسًا لصور حياتهم، وقد اتخذ هذا التأليف حالين:

الأول: يعنى بالشعراء وأحوالهم مع إيراد نماذج من جيد شعرهم.

الثاني: يعني بانتقاء النماذج الشعرية المتميزة، وهي ما تعرف بالمختارات الشعرية مع إيراد نبذة وافية عن حياة الشاعر.

وأصحاب هذا الاتجاه الأخير يهتمون بانتقاء طبقات الشعر الجيدة، بينما أصحاب الاتجاه الأول يهتمون بطبقات الشعراء المبرزين، ومنهم ابن سلام الجمحي [٤]. صاحب كتاب "طبقات فحول الشعراء"، وابن قتيبة[٥] صاحب كتاب "الشعر والشعراء.

وقد استعملت لفظة "طبقة" قبل ابن سلام، وذلك ثابت في نصوص كثيرة، أقدمها قول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– في جواب كتابه لمعاوية بن أبي سفيان: "وما الطلقاء، وأبناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب رحلاتهم، وتعريف طبقاتهم" [٦].

---

[١] مسند ابن حنبل، ١٩/٣.

[٢] الفهرست لابن النديم، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨ هـ، ص ١١١.

[٣] تاريخ النقد الأدبي والبلاغي في القرن الرابع الهجري،د. محمد زغلول سلام، الإسكندرية: منشأة المعراف، ١٩٨٢م، ص ٩٩.

[٤] هو أبو عبيد الله محمد بن سلام بن سالم الجمحي، ولد سنة ١٣٩هـ بالبصرة، وتوفي سنة ٢٣٢هـ على أقوال متعددة. ينظر ترجمته تعريف المحقق لكتاب الطبقات.

[٥] هو أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ هـ– ٢٧٦هـ). ينظر ترجمته في تعريف المحقق للكتاب.

[٦] شرح نهج البلاغة، ٤٤٦/٣.

وتشير لفظة طبقة هنا إلى معنى المنزلة أو المرتبة أو الدرجة، وقد وردت بهذا المعنى في كلام "ابن نواس" (ت: ١٩٨ هـ) [١]. وبشر بن المعتمر (ت: ٢١٠هـ) [٢].

كما وردت بهذا المعنى في كلام كثير من النقاد بعد ابن سلام، منهم الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، حيث يقول: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الاس أنفسهم في طبقات ..." [٣]. وفي كلام أبي العباس ثعلب (ت: ٢٩١هـ)[٤]. وفي كلام الآمدي (ت: ٣٧٠هـ) [٥]، وغيرهم.

وستقتصر الدراسة على الموازنة بين مقدمتي كتابي "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام، و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة؛ للوقوف على رؤية فنية عن الآليات التي استخدمها الكاتبان في اختيارهما للشعراء، والمقاييس الفنية التي اعتمداها في وضع الشعراء في طبقات، وأبرز القضايا النقدية التي أثارها كل منهما.

المبحث الأول: طبقات فحول الشعراء والشعر والشعراء "الغرض والمنهج":

ابن سلام الجمحي (ت: ٢٣٢هـ) كان على علم بفنون الشعر، خبيرًا بصناعته، ملمًا بأخباره، عاش في البصرة، وكان من الآخذين على الرعيل الأول من علمائها؛ كالخليل بن أحمد [٦]، وسيبويه [٧]، ويونس بن حبيب [٨]، والأصمعي [٩]. كما لقي من أهل الكوفة الرواة الموثقين كالمفضل الضبي [١٠]. وروى عن سالم ثلاثة عشر حديثًا؛ مما يشير إلى مصادر ثقافته بعلم الحديث، ومعرفته بأصول اللغة، وتعلقه بالشعر والشعراء.

ويعد كتاب طبقات فحول الشعراء أقدم مصدر أدبي نقدي، وترجع أهمية هذا المصدر إلى ما اشتمل عليه من مقدمة تمثل منهج ابن سلام، كما تمثل تمهيدًا للهدف الأصلي، وهو ذكر العرب وأشعارها، والمشهورين

---

(١) الأغاني للأصفهاني، القاهرة: طبعة دار الشعب (ب.ت)، ٩٨٦٣/٢٩.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: الخانجي، ط٤، ٣٦١/١.

(٣) نفسه، ١٤٤/١.

(٤) قواعد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة: الخانجي، ط٣، ١٩٧٨م، ص ٧١.

(٥) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، ٢٢٥/١.

(٦) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولد بالبصرة، ونشأ فيها، وأخذ اللغة عن أعراب باديها نجد وتهامة، له كتاب العين وكتاب النغم وكتاب العروض وكتاب الشواهد وغيرها (ت: ١٧٥هـ).

(٧) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، وسيبويه لقب له معناه في الفارسية: رائحة التفاح (ت: ١٨٠هـ).

(٨) هو يونس بن حبيب البصري، بارع في النحو من أصحاب عمرو بن العلاء (ت: ١٨٣هـ). انظر: الفهرست ٤٢، نزهة الألباء ٣٢.

(٩) هو عبد الملك بن قُريب أبو سعد، نسبة إلى جده أصمع، نشأ في البصرة، وأخذ العربية من علمائها، والحديث عن أئمتها، له ما يزيد على اثنين وأربعين كتابًا (ت: ٢١٦هـ).

(١٠) هو أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى من أصل عربي، ولد في فارس (ت: ١٧٠هـ).

المعروفين من شعرائها، ففصل الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، ونزلهم منازلهم، واحتج لكل شاعر بما وجد له من حجة، وما قاله فيه العلماء، وألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه [١].

كما تحدث فيها عن عدد من القضايا الأدبية ذات أهمية قصوى تتصل بالنقد الأدبي وبتاريخ الأدب[٢].

وابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) جمع بين معرفة اللغة، فروى آراء البصريين والكوفيين، وبين الإحاطة بعلوم شتى كعلوم القرآن وعلو الحديث وغيرها. ويمتد تعصبه للعرب وثقافتهم إلى مجال دراسة الشعر، فيقول في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء": "وكان حق هذا الكتاب أن أودعته العرب من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحكم الموضوعة لحكم الفلاسفة والعلوم، في الخيل، والنجوم وأنوائها، والاهتداء بها .... " [٣].

فنجده يضع الثقافة العربية المتمثلة في الأخبار والأنساب والحكم وغيرها في مقابل حكم الفلاسفة، ويتضح من النص السابق أن سبب دراسته للشعر ليس سببًا فنيًا خالصًا، وإنما يتعلق بالدفاع عن العرب؛ لأن الشعر وعاء ثقافتهم. كما كان متأثرًا بمقتضيات التدوين وجمع اللغة، ويتفق في هذا مع ابن سلام؛ لذلك لم يتقدما بفن النقد تقدمًا ملحوظًا، وإن حاولا مناقشة مسائل وقضايا تعد بدايات للدرس الأدبي والنقدي.

ويعد كتاب (الشعر والشعراء) مرجعًا في تاريخ الأدب والنقد؛ لما ورد فيه من أخبار الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأنسابهم وما يستحسن من أخبارهم، وما يستجاد من أشعارهم، ولما جاء فيه من مختارات شعرية في أغراض متنوعة لأكثر من مائتي شاعر ما بين جاهلي ومخضرم وإسلامي وعباسي، كما يعد من المراجع المعول عليها في النقد الأدبي، لما أثبت فيه من مآخذ على الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم، ولما عرض من ضروب الشعر ووجوه استحسانه واستهجانه، ولما وضع من قواعد للنقد وأصوله.

أولاً- أسس اختيار الشعراء:

إن جمع الشعراء والترجمة لهم، وكذلك جمع الشعر وتنقيته يحتاج إلى أسس ومعايير فنية تختلف من ناقد لآخر حسب رؤية هذا الناقد وثقافته والغرض من تأليف مصنفه، فقد يكمن السر وراء هذا الاختيار في الشهرة، بأن يكون من المشهورين من الشعراء أو المغمورين، وقد يكون أيضًا في المادة الشعرية غزارة أو قلة، أو في تباين مستوياتهم الفنية في تنوع الموضوعات وتعددها.

وقد ارتكز ابن سلام الجمحي في طبقاته على أساس الفحولة، فكل من ذكرهم في كتابه من الشعراء فحول، صرح بذلك عند ذكره شعراء الجاهلية: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا"، ولم يصرح به عندما ذكر طبقات الشعراء الإسلاميين، ولكنه قد يستنتج من طبيعة عمله [٤]. لم يكشف ابن سلام عن مقصده بمصطلح الفحولة، وإن كانت هناك ملامح لمحها ابن سلام مثل الشهرة، والذيوع، والكم،

---

[١] النقد المنهجي، د. محمد مندور، القاهرة، ص ١١.

[٢] دراسة في مصادر الأدب، د. الطاهر أحمد مكي، ص ١٦١.

[٣] الشعر والشعراء، ٦٣/١.

[٤] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ط١٩٩٣م، دار الشروق، عمان، ص ٦٨.

والإجادة لم يصرح بها، وإن اعتبرها. فإذا سئل ابن سلام كيف تقدم "طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص" ولم يصح لهما إلا عشر قصائد؟ قال: "وإن لم يكن لهما غيرهن من القصائد، فليس موضعهما من الشهرة والتقدمة"، ولكن يعترض ابن سلام هنا أن شهرتهما وتقدمهما يوحيان أن يكونا لهما شعر كثير إلا أن أكثره ضاع، وضياعه لا يحرمهما الفحولة والتقدم، وابن سلام يهدف من تصنيفه إلى تمييز الجيد من الرديء، والمشهور من المغمور، لقوله: "فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني من علمه ناظر" [١].

أما ابن قتيبة فلم يعرض إلا لمن "كان الأغلب عليه الشعر" [٢]. فهو يهدف من تصنيفه إلى إحصاء أشعر الشعراء، ويقول: وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يصح الاحتجاج بأشعارهم" [٣].

فمسألة اختيار الشعراء تقع على أكثرهم شعرًا، وأكثرهم شهرة، ويعلل ابن قتيبة ذلك بقوله: "والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط، أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنفير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحدًا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها" [٤].

وقد روى أن أبا ضمضم الذي أسن قد أنشد لمائة شاعر اسم كل واحد منهم عمرو، على الرغم من أنه لم يكن بأروى الناس" [٥].

لقد اتفق ابن سلام وابن قتيبة في بعض أسس اختيار الشعراء، وتتمحور في الشهرة وغزارة الإنتاج على تطبيق هذه الأسس.

ثانيًا – منهج الدراسة والعرض في الكتابين:

اتخذ ابن سلام المنهج التاريخي أساسًا لتناول الشعراء في طبقاته، ونعني بالمنهج التاريخي: "دراسة العوامل المؤثرة في الأدب وصلته بزمانه وعصره" [٦].

فلكل عصر قضاياه التي تنعكس على كل شعرائه سلبًا أو إيجابًا، وبالتالي فإن اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وتغيير أنماط الحياة تترك كثيرًا من الآثار والاختلاف بين الشعراء، وإذا أردنا أن نقرأ هذا في طبقات فحول الشعراء، فسنلاحظ أننا أمام عصرين بكل ما فيهما من مظاهر الاتفاق والاختلاف. يقول

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ٣/١.

(٢) الشعر والشعراء، ٦٢/١.

(٣) نفسه، ٦٥/١.

(٤) نفسه، ٦٦/١.

(٥) نفسه، ٦٦/١.

(٦) في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، د. فائق مصطفى، ص ١٧٧.

ابن سلام: "ففضلت الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام المخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجد له من حجم وما قاله فيه العلماء" [١].

ولقد اعتمد ابن سلام في تناول الشعراء على دعامتين، ذكر هنا إحداهما، وهي: ما قاله العلماء وما احتجوا فيه في شأن الشعراء ومنازلهم، وذكر الأخرى في موضع آخر [٢]، وهي "الفحص والنظر" ويعني اجتهاده هو، وذوقه الخاص.

وجاء معظم هؤلاء العلماء من النحويين واللغويين والرواة، من أولئك أبو خليفة الفضل بن الحباب، ويونس بن حبيب، وأبو يحيى الضبي، وسلمة بن عياش، وشعيب بن صخر ... وغيرهم.

ويطرح ابن سلام المعلومات في حوار على لسان أحد هؤلاء العلماء الذين يثق بهم، ثم يحاول التأكد مما وصل إليه من حقائق، فقد وضع في الطبقة الأولى من الجاهليين "امرأ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى بن قيس"، ويقول: "إن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر، وإن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وإن أهل الحجاز يقدمون زهيرًا والنابغة"، وحصر كذلك ما تناقله العرب، وما ساد في أوساطها من أقوال وآراء حول الشعراء الذين يتصدرون المشهد، ويحتلون الطبقة الأولى ليقارن بينهم، وكثيرًا ما يلجأ إلى الشعراء، وتلك رؤية فنية عند ابن سلام الذي أدرك أن أهل الشعر أدرى بضوابطه وعوامل قوته وأسباب ضعفه، وقد أورد ما قاله الفرزدق في الطبقة الأولى من الجاهليين، فحين سئل عن أشعر الناس؟ قال: ذو القروح، ويعني امرأ القيس في قوله:

وَقَـــاهُمْ جَـــدهُم ببَنِـــي أبِـــيهم وبالأشـــقيْنَ مَـــا كَـــان العقـــابُ

وسئل لبيد من أشعر الناس؟ فقال: "الملك الضليل"، ثم يسوق ابن سلام حجج أولئك الذين قدموا امرأ القيس، وحصرها في سبقه العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتبعته فيها الشعراء، منها استيقاف الرفيق، والبكاء على الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهًا.

وأما الذين يحتجون للنابغة فإنهم يرون أنه كان أحسن الشعراء في ديباجة شعره وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتًا، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف، والمنطق على المتكلم أوسع منه على الشاعر، والشاعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي، والمتكلم مطلق يتخير الكلام، وإنما نبغ النابعة بالشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يهتر، ويستشهد له بقول عمر بن الخطاب حبن سئل عن بيت النابغة:

ولَســـتُ بمُسْـــتَبق أخًـــا لا تلُمُّـــهُ عَلَى شَـــعثٍ أيُّ الرِّجَـــال المُهَـــذَّبُ؟!

من أن النابغة أشعر الشعراء.

---

[١] طبقات فحول الشعراء، ١/٢٣– ٢٤.

[٢] المرجع السابق، ١/٤٩.

والذين يناصرون زهيرًا يستشهدون – كذلك– بما قاله عمر: كان زهير لا يعاظل في الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه [١]. ثم يردف ابن سلام: "وقال أهل النظر – أهل العلم بالشعر– كان زهير أحصفهم شعرًا، وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالاً في شعره [٢].

ورأى أصحاب الأعشى أنه كان أكثرهم عروضًا وأذهبهم في فنون الشعر وأكثرهم طوية جيدة، وأكثرهم مدحًا وهجاء ونظرًا .. وكان أول من سأل بشعره، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه، يقول ابن سلام: "وشهدت خلفًا وقيل له من أشعر الناس؟ فقال: ما ينتهي هذا إلى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس، قلت: فأيهم أعجب إليك يا أبا محرز؟ قال: الأعشى، قال: أظنه قال كان أجمعهم، وكان عمرو بن العلاء يقول مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره[٣].

وهذه المعلومات التي قدمها ابن سلام عن شعراء الطبقة الأولى الجاهلية ترجع في مجملها إلى آراء فنية تمس جوهر القصيدة في بنائها وعوامل قوتها، وإن لم يبرز ذلك ابن سلام بقدر اهتمامه ببيان منازل الشعراء، ولقد أخذ ابن سلام بما قاله العلماء في الشعر والشعراء قبله لأمرين:

الأمر الأول: ثقته فيهم، وطبيعته علم الرواية ع ند القدماء.

والأمر الثاني: هو أن العشائر لما قالت بأهوائها في شعرائها، صار الناس لا يقنعون إلا بالرواية عمن تقدم من أهل العلم بالشعر [٤].

وهذا دليل واقعي على الثقة في العلماء الأوائل الذين احتج بهم ابن سلام.

وقد استفاد في ذلك بمعطيات العصر وما أمده بمعلومات وفيرة عن حياة الشاعر، والآراء التي أحاطت به وبشعره.

وقد فصل ابن قتيبة منهجه في الدراسة، وهو أول منهج يصلنا في العربية على هذا القدر من الوضوح، ففيه حديث عن مادة الكتاب، وغاية المؤلف، ووسيلته لتحقيق هذا الهدف [٥].

لقد اتبع ابن قتيبة المنهج التاريخي في تصنيف الشعراء، حيث يلزم بالترجمة لهم ضمن عصورهما لأدبية وبيئاتهم الفنية، حيث أورد الجاهليين أولاً وأتبعهم الإسلاميين وتناثر المخضرمين بين القسمين، وداخل كل

---

(١) المعاظلة في الكلام: أن يركب بعضه بعضًا، ويتداخل حتى يثقل نطقه وسماعه.

(٢) ويرى الدكتور بدوي طبانة أن كلمة عمر هذه من أقدم النصوص التي وصلت إلينا من حيث اعتمادها على تفضيل أسباب اختيار الشعر، وتفضيل الشاعر. دراسات في نقد الأدب العربي، د. بدوي طبانة، ص ٩٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ١/٢٦– ٢٩.

(٤) نفسه، ١/٢٤.

(٥) دراسة في مصادر الأدب العربي، د. الطاهر أحمد مكي، ص ٢٤١.

قسم سار فيه على ما يمكن أن يسمى بتداعي المعاني [١]. فبدأ بامرئ القيس وثنى بزهير وأتبعه ابنه كعبًا، كما التزم بالترجمة لهم ضمن بيئاتهم الأدبية، حيث خص شعراء قبيلة هذيل بطبقة، وقد يكون للطابع لافني تأثيره على ابن قتيبة في ضم الشعراء في طبقات بعينها، حيث جعل الرجاز في طبقة، وخص شعراء الهجاء بطقة، والمجان في طبقة، والطبقة تعني حشد شعراء كل اتجاه على حدة، والترجمة لهم بالترتيب والاستشهاد بأشعارهم، وإن خرج على هذا المنهج في بعض الأحيان لوجود علاقة بين شاعر وآخر، فالابن يتبع أباه كما هو الحال في إلحاق كعب بأبيه زهير، والقرابة الاجتماعية هي السر وراء هذا الجمع، وقد تكون القرابة الفنية سببًا في إلحاق شاعر بآخر حيث ترجم لشعراء النقائض متتابعين جرير والفرزدق والأخطل على التوالي، ويقرر ابن قتيبة أنه لن ينظر في الشعر إلا من حيث هو شعر، غير أنه يخالف هذا المبدأ ليستحسن ما استحسنه الأولون من غير تدخل منه، وهذا واضح في اختياره لشعراء الطبقة الأولى على سبيل المثال، حيث اعتمد على آراء العلماء قبله كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي متابعًا في ذلك ابن سلام.

إضاءة:

يتفق كل من "ابن سلام" و"ابن قتيبة" في الابتداء بامرئ القيس ثم يختلفان في ترتيب بقية الشعراء، فابن سلام يجعل امرأ القيس ضمن الطبقة الأولى التي تضم النابغة وزهير والأعشى الذي يستبدله ابن قتيبة بكعب بن زهير الذي وضعه مع أبيه بدافع صلة القرابة.

وقد اختلف ابن سلام في شعراء الطبقة الأولى: أيهم أشعر من الآخر؟

يقول: "ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والرواية عمن مضى من أهل العلم إلى رهط أربعة على أنهم أشعر العرب طبقة، ثم اختلفوا فيهم بعد، وسنسوق اختلافهم واتفاقهم، ونسمي الأربعة، ونذكر الحجة لكل واحد منهم، وليس تبدئتنا واحدًا في الكتاب نحكم له، ولا بد من مبتدأ".

وإن أورد ابن سلام في طبقاته نصًا يدل على تفرد امرئ القيس على نظرائه، لقوله: "... احتج لامرئ القيس من يقدمه قائلاً: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنها العرب، واتبعته فيها الشعراء، منها استيقاف صحبه، والبكاء على الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل في النسيب، وبين المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهًا" [٢].

---

[١] أطلق د. الطاهر أحمد مكي هذا المصطلح، وقصد به وجود علاقات بين الشعراء دفعت بابن قتيبة إلى الجمع بينهم عند الترجمة لهم كالعلاقة الأسرية والقرابة الفنية وغيرها. ينظر: دراسة مصادر الأدب العربي، ص ٢٤٠.

[٢] الطبقات، ١/٥٥.

فلهذه الأسباب استحق امرؤ القيس هذه المكانة المتقدمة على نظرائه، وقد تابع ابن قتيبة ذكر هذه الأسباب، وفصل في عرضها، وأضاف على ما أورده ابن سلام شيئًا جديدًا، وهو ذكر العيوب والمآخذ التي تؤخذ على امرئ القيس، واستشهد عليها من شعره.

ويتفق الناقدان في الترجمة للشعراء والتعريف بهم، إذ يبدأ كل منهما باسم الشهرة للشاعر أولاً، ثم الاسم الحقيقي ونسبه إلى أن يصل إلى قبيلة الشاعر مع ذكر كنيته، وإيراد نماذج من أشعاره، بعدها يعود إلى تفاصيل حياته، وما يعرف به من أخبار ونوادر.

وقد تتشابه أسماء بعض الشعراء، وقد يتفق أكثر من شاعر في اسم واحد، وعندها يشير ابن سلام إلى هذا، وقد يذكر ما يميز الشاعر من خصائص، كقوله:

"الكميت بن معروف وهو شاعر، وجده الكميت بن ثعلبة شاعر، وكميت بن زيد الآخر شاعر، والكميت بن معروف الأوسط أشعرهم قريحة، والكميت بن زيد أكثرهم شعرًا" [١].

أما ابن قتيبة فيذكر ما انفرد به كل شاعر، وما يأخذه كل شاعر من الآخر [٢].

وهذه التراجم لا تخضع للتناسب في العرض بين الشعراء، ففي الوقت الذي يمتد ابن سلام في عرض الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين إلى خمسين صفحة تقريبًا، لا يتعدى عرض الطبقة السابعة من الشعراء الجاهليين صفحتين، كذلك الطبقة الأولى الإسلامية التي يعادل عرض شعرائها عرض شعراء طبقة المراثي، وطبقة القرى، وطبقة اليهود مجتمعة، أو تعادل الطبقات التسعة الإسلامية الباقية مجتمعة أيضًا.

وكذلك ابن قتيبة يعرض لامرئ القيس في أكثر من ثلاثين صفحة، في حين أن هناك تراجم تقصر حتى لا تتجاوز اسم الشاعر، يتلوه ببيت له من الشعر كما في ترجمة: سحيم بن وثيل، وهو القائل:

أنَـــا ابْـــنُ جَـــلا وطَـــلاعُ الثَّنايَـــا مَتَـــى أضَـــعِ العِمَامَـــةَ تَعْرِفُـــونِي[٣]

المبحث الثاني: المقاييس الفنية في ترتيب الشعراء في الكتابين:

مدخل:

اعتمد ابن سلام وابن قتيبة في عرض الشعراء وترتيبهم (تقديمًا وتأخيرًا) على آراء العلماء، والرواة، والجمهور.

قال ابن سلام: "واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قاله فيه العلماء" [٤]. ويشير في أكثر من موضع إلى ذلك، فيقول: "أخبرني فلان"، وقال من احتج لفلان، و"قال أهل النظر"، و"أجمع الناس على شاعرية فلان".

---

[١] الطبقات، ١/١٩٥.

[٢] ينظر: الشعر والشعراء، ١/٦٨.

[٣] الشعر والشعراء، ٢/٥٣٨.

[٤] طبقات فحول الشعراء، ١/٢٤.

ولا يمنع هذا الأساس ابن سلام من مخالفة آراء البعض إذا دعت الحاجة واقتضت الضرورة ذلك، كقوله في كثير: "وكان كثير شاعر أهل الحجاز، وإنهم ليقدمونه على بعض من قدمنا عليه، وهو شاعر فحل، ولكنه منقوص حظه بالعراق" [١].

فخالفهم ابن سلام وقدم غيره عليه معتمدًا في هذا على ذوقه الخاص، وقد يأتي توزيعه للشعراء على طبقاته أحيانًا مناقضًا لما سبق أن أعلنه من آراء في مقدمته، فقد صرح فيها بأن النقد المعتد به هو نقد الخاص لا آراء العامة، ولكن وضع لبيد في الطبقة الثالثة، وقدمه على خداش بن زهير الذي سلكه في الطبقة الخامسة متأثرًا برأي العامة دون رأي العلماء يقول: "قال أبو عمرو بن العلاء [٢]: هو أشعر في قريحة الشعر من لبيد، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد وكان يهجو قريشًا" [٣].

أما ابن قتيبة فقد وافق ابن سلام في الاستناد على آراء العلماء، ومن عباراته التي تشي باعتماده على آراء العلماء: "ومما قيل في تقديم فلان"، و"مما أخذه العلماء عليه"، و"يستحسن من شعر فلان"، و"لا أحسب أحدًا من أهل التمييز والنظر" ... إلخ، مما يشير إلى توجه ابن قتيبة في نفس اتجاه ابن سلام.

ومن أبرز المقاييس الفنية في ترتيب الشعراء عند أصحاب كتب الطبقات:

١- <u>الزمان أي "العصر":</u> وهو من أبرز المقاييس النقدية وأعمها وأشهرها، يتضح ذلك من خلال تلك الأحكام الطبيقية التي يتخذ الناقد من عنصر الزمان مقياسًا في وضع الشعراء ضمن طبقاتهم، وهو ما يعرف بالقدم والحداثة أو الخصومة بين القدماء والمحدثين [٤]. والقدماء هم الشعراء الذين جاءوا في العصر الجاهلي وفي عصر صدر الإسلام والأموي حتى نهاية القرن الأول، ولكن المحدثين هم من أتوا بعدهم وأنصارهم، أمثال بشار بن برد، ومطيع بن إياس، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي تمام، والمتنبي.

وقد اختلف النقاد على أيهما أفضل: القدماء أم أصحاب الشعر المحدث؟ وعليه فقد نشأت الخصومة بين الفريقين، وقد كان اللغويون في مقدمة المتعصبين للشعر القديم؛ لأنه كان العنصر البارز في ثقافتهم بحفظهم للشعر الجاهلي والإسلامي وتأثير ذلك في أذواقهم، ولكن تفضيلهم للشعر القديم على الحديث لم يكن قائمًا

---

(١) نفسه، ٢/٥٤٠.

(٢) أبو عمرو بن العلاء: عالم من علماء اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، اشتهر بمعرفة أيام العرب ولهجات القبائل، توفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ١/١٤٤.

(٤) المحدث في اللغة نقيض القديم، وقد أطلق (المحدثون) في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشأوا في العصر العباسي، كما أطلق عليهم اسم (المولدين)، والمولد في اللغة اسم لمن نشأ غير خالص العروبة معرفًا كان أو هجينًا، ولكنه أطلق على الشعراء المذكورين، ولو كانوا عربًا خلصًا دون من سبقوهم، ولو كان غير خالص العروبة، وعصر المحدثين يبدأ على الأرجح قبل قيام الدولة العباسية من عهد بشار بن برد إلى اليوم.

على النقد الأدبي الجمالي المرتبط بجودته أو فصاحة اللفظ، أو جودة العبارة، أو حسن السبك والتصوير، أو صدق الإحساس مثلاً، إنما لأجل سبقه وأقدميته.

وقد انقسم النقاد حيال هذه القضية إلى مؤيدين ومعارضين، لكل فريق منهم دافعه في ت قديم القديم أو الحديث، وكان هناك فريق معتدل حاول التوسط بين الفريقين والتوفيق بينهما.

فابن سلام كان من أنصار القديم، وكان مدفوعًا لحاجته للشواهد شأنه في ذلك شأن اللغويين أمثال أبي عمرو بن العلاء [١]. يتضح ذلك من قوله في الأخطل: "لو أدرك الأخطل من الجاهلية يومًا واحدًا ما قدمت عليه جاهليًا أو إسلاميًا" [٢].

وابن سلام اقتصر في طبقاته على شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية، في حين تجاوز شعراء عصره أمثال بشار ومسلم وأبي نواس وأبي تمام وغيرهم. وقد يرجع السر وراء هذا التعصب إلى تأثر ابن سلام بابن سعد الذي قسم الصحابة في طبقات وفق سابقتهم ومنزلتهم في الإسلام.

أما ابن قتيبة فقد وقف موقفًا وسطًا بين القدماء والمحدثين، وربما كان لاشتغاله بالقضاء أثر واضح في موقفه المعتدل، قال: "ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلال لتقدمه، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاً حظه، ووفرت عليه حقه" [٣].

وهو يقر مبدأ الجودة في أكثر من موضع، يقول: "ولا أحسب أحدًا من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل، وترك طريق التقليد، يستطيع أن يقدم أحدًا من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعره غيره" [٤].

فهو لم يراع غير مبدأ الجودة، بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى كالعصر، أو المكانة الاجتماعية، فقال: "كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندها شرف صاحبه ولا تقدمه" [٥].

لقد تحرر ابن قتيبة من التبعية للقديم، وأخذ على نقاد الشعر ودارسيه من أهل زمانه أن منهم "من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأي قائله" [٦].

---

(١) ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، لعبد الحميد الجندي، ص ٢١٣.

(٢) فحولة الشعراء للأصمعي، ص ١٣.

(٣) الشعر والشعراء، ٦٨/١.

(٤) نفسه، ٧٨/١.

(٥) نفسه، ٦٩/١.

(٦) نفسه، ٦٨/١.

وبرر ابن قتيبة رفضه لهذا التعصب أنه لا يوجد قديم مطلق ولا حديث مطلق، فالأمر نسبي، فقديم اليوم كان بالأمس القريب حديثًا، وحديث اليوم سيصبح في الغد العاجل قديمًا، فقال: "فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ... ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخُريمي، والعتابي، والحسن بن هانئ وأشباههم" (١).

وذهب ابن قتيبة إلى أن الإبداع ليس مقصورًا على القدماء، وإنما قسمه الله سبحانه وتعالى للناس في كل زمان ومكان، يقول: "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر" (٢).

غير ان ابن قتيبة لم يثبت على جرأته التوفيقية التي قدم بها وجهة نظره النقدية فيما هو قديم أو حديث، وارتد عن رأيه النقدي، فهو بعد ان تحدث عن الوحدات الرئيسية في القصيدة العربية اتخذ منها مقياسًا نقديًا تقليديًا؛ لقوله: "فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ للمزيد"، ويتمادى في هذا الرأي بإلزام المحدثين باتباع أساليب القدماء في بناء القصيدة، وأرى أن هذا الإلزام لم يقتصر على حد الشكل في بناء القصيدة، قال ابن قتيبة: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف عند منزل عامر، ويبكي عند مشيد البناء؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ..." (٣).

٣- المكان أي "البيئة":

للبيئة دور كبير في تحفيز القرائح وإثارة الوجدان، فلكل بيئة سماتها الخاصة تظهر آثارها جلية على الشعراء، كذلك أثر البيئة في لين اللسان وغلظته لدى الشاعر، وكذلك آثارها في رقة الألفاظ وخشونتها، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل يتعدى ذلك في ظهور أثر البيئة على النتاج الأدبي قلة أو كثرة.

لقد تنبه ابن سلام إلى أهمية المكان/ البيئة/ في تصنيف الشعراء، وكان يقصد بالبيئة مجموعة العوامل الطبيعية والسياسية والاجتماعية التي تحيط بحياة الشاعر وتؤثر في نفسه ومزاجه، فنجده يقسم الشعراء إلى "بدو و"حضر"، وجعل شعراء البادية في إحدى عشرة طبقة، خصص الطبقة الحادية عشرة لشعراء المراثي، ونظر إلى شعراء الحضر، فوجدهم يتركزون في خمس قرى، وحصرها ابن سلام في "المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين، وأشعرهم قرية المدينة" (٤). وقد وصف شعر قريش باللين وذلك لتحضرها،

---

(١) نفسه، ٦٩/١.

(٢) نفسه، ٦٩/١.

(٣) سيأتي تفصيل هذا الأمر لاحقًا عند الحديث عن بناء القصيدة.

(٤) طبقات فحول الشعراء، ٢١٥/١.

يقول: "وأشعار قريش فيها لين، وسبب ذلك فيما أرى تحضر قريش؛ لأنها كانت تسكن إحدى قرى الجزيرة، وكانت العرب تقصدها في سوق عكاظ، فكانت تختار لفظها"[١].

كما أظهر ابن سلام أثر البيئة في الخصائص الفنية للشعر حين تحدث عن عدي بن زيد: "كان يسكن الحيرة ويراكز الريف، فلان لسانه، وسهل منطقه، فحمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلط فيه المفضل فأكثر" [٢].

كما ربط بين البيئة وما كان يحدث من حروب ونزاعات قبلية كأهل الطائف، حيث قال: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة، ولم يحاربوا" [٣].

وقد أكد ابن قتيبة ما قاله ابن سلام، وكرر بعض مقولاته مثل ما ذكره ابن سلام من تأثير الريف على شعر عدي بن زيد من ضعف وركاكة" [٤].

٣- الموضوع الشعري:

ورد في بعض حجج النقاد في تقديم شاعر على غيره من الشعراء أنه قد برع في فن من فنون الشعر، وخرج في معانيه أكثر مما خرج غيره من الشعراء.

وكان ابن سلام أول من لجأ إلى تقسيم الشعراء في طبقات حسب الموضوع الشعري، حين شعر بأن نظامه الطبقي لا يستوعب كل الشعراء، فاضطر إلى تخصيص طبقة لشعراء المراثي الذين أبدعوا هذا الفن، كما خصص الطبقة السادسة من طبقات الشعراء الإسلامية لشعراء النسيب، فوضع فيها "ابن الرقيات، والأحوص، وجميل، ونصيب"، كما وضع مشاهير الهجائيين في الطبقة الأولى من الإسلامية، وهم: جرير، والفرزدق، والأخطل، والراعي".

أما ابن قتيبة فلم يتقيد بنظام ابن سلام الطبقي، وإنما تخير مشاهير الشعراء في كل غرض من أغراض الشعر، وصنفه وفق تلك الأغراض أو الموضوعات التي عرفوا فيها، يقول ابن قتيبة: "والشعراء أيضًا في الطبع مختلفون منهم من يسهل عليه المديح، ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسر له المراثي، ويتعذر عليه الغزل" [٥].

---

(١) نفسه، ٢١٠/١.

(٢) نفسه، ١٤٠/١.

(٣) نفسه، ٢٥٩/١.

(٤) الشعر والشعراء، ٢٣٦/١.

(٥) نفسه، ١٠٠/١.

وفي الوقت الذي أفرد ابن سلام لشعراء الرجز طبقة وهي الطبقة التاسعة من طبقات الشعراء الإسلامية، وترجم لأربعة من مشهوريهم، وهم: "الأغلب أبو العجلي، وأبو النجم، والعجاج [١]، ورؤبة بن العجاج" [٢]، أولى ابن قتيبة الرجاز اهتمامه حين اختار ستة من مشهوريهم، وترجم لهم ترجمة متسلسلة، وهم: "العجاج، وابنه رؤبة، وأبو نخيلة، وأبو النجم، ودكين، والأغلب".

كما أصدر أحكامًا نقدية بناءً على تفوق الشاعر في غرض من الأغراض، قال ابن سلام في سبب تسمية الراعي: "سمي راعي الإبل لكثرة صفته للإبل، وحسن نعته لها، فقالوا: ما هذا إلا راعي الإبل، فلزمته" [٣]. وقال ابن قتيبة: "فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيهًا، وأجودهم تشبيهًا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وجن، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع" [٤]. وقد أبدع أوس والشماخ في وصف القسي، وقال في أوس: "وهو أوصف الناس للقوس، ثم تبعه الشماخ" [٥].

٤- القدرة على التصرف في أغراض الشعر:

من المقاييس النقدية التي اعتمدها ابن سلام في تقديمه للشعراء تعدد أغراضهم الشعرية، وقد كان هذا المقياس سائدًا لدى نقاد هذه الفترة، خاصةً وأنه شاع في مدرسة الكوفة فتأثر به الأصمعي، ويبدو تأثره به حين سئل عن الأعشى فقال: "أن أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحدًا، قال: وكان خلف لا يقدم عليه أحدًا، قال أبو حاتم: لأنه قد قال في كل عروض وركب كل قافية" [٦]. فكان يرى أن عدد بحور الشعر وتعدد قوافيه عند الأعشى من دوافع تفضيله وتقديمه على نظرائه من الشعراء.

واعتمد ابن سلام هذا المقياس متأثرًا بأستاذه الأصمعي، وهو مهتم إلى حد كبير، فها هو ذا يوافق من ناصر جرير على الفرزدق؛ لأنه كان أكثر تصرفًا، وقدرة على القول في أغراض الشعر المختلفة، فهو مع بشار العقيلي في قوله: "وكان جرير يحسن ضروبًا من الشعر لا يحسنها الفرزدق"[٧].

ولهذا وضع ابن سلام الأعشى في الطبقة الأولى؛ لأنه كان ذا تصرف في أغراض الشعر، يقول: "وقال أصحاب الأعشى هو أكثرهم عروضًا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحًا وهجاءً وفخرًا ووصفًا، كل ذلك عنده" [٨].

---

(١) العجاج هو عبد الله بن رؤبة، راجز مجيد، ولد في الجاهلية، وعمر في الإسلام، توفي سنة ٩٠ هـ.

(٢) هو رؤبة بن عبد الله العجاج، راجز فصيح، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، توفي سنة ١٤٥هـ.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ٢٩٨/١.

(٤) الشعر والشعراء، ١٠٠/١.

(٥) نفسه، ٢٥٠/١.

(٦) فحولة الشعراء، ص ١٢.

(٧) طبقات فحول الشعراء، ٢٧٤/١.

(٨) نفسه، ٦٥/١.

وقد "كثير عزة" ووضعه في الطبقة الثانية من طبقات فحول الشعراء الإسلاميين، وأخر "جميل بثينة" إلى الطبقة السادسة مع أنه مقتنع بأن "جميلاً" كان أكثر تمكنًا في غزله ونسيبه، إلا أن الذي رجح كفة "كثير" كونه صاحب أغراض متعددة، يقول ابن سلام: "وكان لكُثير في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه في النسيب، وله في فنون الشعر ما ليس لجميل، وكان جميل صادق الصبابة، وكان كثير يتقول، ولم يكن عاشقًا" (١).

ونلاحظ أن الذي قدم جميلاً في النسيب صدق عاطفته، وشدة وجده، وهذا الحكم يدل على إدراك ابن سلام دور صدق العاطفة في جودة الشعر، لا في ترتيب الشاعر ومنزلته، فالمعول هنا على كثرة فنون الشعر عند "كثير" فهي التي جعلته يتقدم على "جميل"، على ما في شعر "كثير" من التقول في التشبيب، وافتقاد عنصر التجربة الشعورية وفتور الأحاسيس "أي مراعاة الصدق الفني" لم يؤثر على منزلة الشاعر عند ابن سلام.

وقد أخر ابن قتيبة ذكر ذي الرمة لعدم التصرف في فنون الشعر، ذلك أنه وقف نفسه عند ذكر الدمن، ووصف الأبعار والعطن، وقصر في المدح والهجاء، وهما غرضا الوقت، وأشهر معاني العصر، هكذا قال الفرزدق وغيره (٢).

وقدم عمر بن الخطاب امرأ القيس على غيره من الشعراء؛ لأنه سبق إلى كثير من المعاني، وأجاد استخراجها، فقال: "هو سابق الشعراء خسف لهم عين الشعر" (٣).

٥- الكثرة مع الجودة:

هذا المقياس شديد الاتصال بالمقياس السابق، وهو التصرف في فنون الشعر، والمعنى فيه أن يكثر شاعران، ويجيدان، ثم يكون جيد أحدهما من القصائد والأبيات أكثر من جيد الآخر، فيقدم الأكثر جيد شعر.

وقد اعتمد ابن سلام على هذا المقياس في تطبيقه الشعراء إلى طبقات، فقال: "إن قلة الصحيح الجيد من شعر الشاعر تؤخره عن المكثر المجيد، وإن كان من طبقته، وعلى هذا الأساس وضع طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبده، وعدي بن زيد في الطبقة الرابعة، قائلاً: "هم فحول شعراء موضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة" (٤).

كما كرر قوله ذاته عن شعراء الطبقة السابعة من الجاهليين، فقال: "هم أربعة رهط محكمون، مقلون، وفي أشعارهم قلة، فذاك الذي أخرهم" (٥).

---

(١) نفسه، ٢/٥٤٥.

(٢) الشعر والشعراء، ١/٥٤١. والعطن للإبل كالوطن للناس، ثم غلب على مبركها حول الحوض، لسان العرب، مادة "عطن".

(٣) نفسه، ١/١٣٣.

(٤) طبقات فحول الشعراء، ١/١٣٧.

(٥) نفسه، ١/١٥٥.

لقد جعل ابن سلام قلة أشعار الطبقتين الرابعة والسابعة مع جودة نتاجهم سبب تأخرهم في التصنيف، كما اهتم بالجودة بالإضافة إلى الكثرة عند ذكره حسان بن ثابت "وهو كثير الشعر جيده"[١]. وذكر عن الأسود بن يعفر: "له (قصيدة) واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته"[٢]. وقد ذكر الأستاذ طه أحمد إبراهيم أن ابن سلام اصطنع مقياس الجودة مع الكثرة معًا، فهما مقياس واحد [٣]. أما الدكتور محمد مندور فقد ذهب إلى أن الكثرة والجودة مقياسان منفصلان عند ابن سلام، وقال إنه قدم الكثرة على الجودة، وعاب ذلك عليه [٤]. وأميل للرأي الأول أي كونهما مقياسًا واحدًا، فلا يختلف أحد منا في أن المجيد المكثر خير من المقل المجيد.

أما ابن قتيبة فلم ينظر إلى الكم كمعيار يستند إليه في اختياره للشعراء والترجمة لهم، وإن ردد بعض أقوال سابقيه ممن تحدثوا بالكم كقوله في الأعشى: "والأعشى هو رابع الشعراء المتقدمين، وهو يقدم على طرفة؛ لأنه أكثر عدد طوال جياد" [٥].

وقال في خلف الأحمر: "كان شاعرًا كثير الشعر جيده، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعرًا منه"[٦].

وقال في الخليل بن أحمد: "وكان أجودهم طبعًا، وأكثرهم شعرًا" [٧].

فجودة إنتاج الشعر من ناحية المعنى والأسلوب، مع غزارة هذا الإنتاج وتنوعه يعد من أبرز المقاييس للحكم على الشعراء عند الناقدين.

والباحث عن الأسباب التي جعلت ابن سلام وابن قتيبة يضعان الشعراء في مراتب وطبقات يسبق بعضها بعضًا، يراها تتفق بينهما أحيانًا، وتختلف أحيانًا أخرى، ففي الوقت الذي يأخذ ابن سلام بعنصر الزمان أي سبق الشاعر وأقدميته، يرفض ابن قتيبة التعصب للقديم، فالإبداع ليس مقصورًا على القدماء.

كذلك يأخذ ابن سلام بمقياس الكثرة والقلة في تقديم الشعراء وتأخيرهم، في حين ابن قتيبة يقر مبدأ الجودة مع الكثرة.

ويتفق الناقدان على إرساء ثلاث دعائم:

أولاً- تنوع الأغراض الشعرية في إنتاج الشاعر، بأن يكون كثير التصرف في فنون الشعر.

ثانيًا- المكان وأثره في الشاعر.

---

(١) نفسه، ٢١٥/١.

(٢) المرجع السابق، ١٥٥/١.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص ٨٦.

(٤) النقد المنهجي، د. محمد مندور، دار نهضة مصر (د.ت)، ص ٣٠.

(٥) الشعر والشعراء، ٢٦٩/١.

(٦) نفسه، ٧٩/٢.

(٧) نفسه، ٧٦/١.

ثالثًا- الموضوع الشعري، فقد يبرع شاعر في فن من فنون الشعر، ويخرج في معانيه أكثر مما يخرج غيره من الشعراء، فيصدر الأحكام النقدية بناءً على تفوق الشاعر في غرض من الأغراض.

هذه المقاييس من (الزمان- المكان- الموضوع الشعري- تعدد الأغراض الشعرية- الكثرة والجودة)، هي التي اعتمد عليها الناقدان في وضع الشعراء في طبقات، وهي مقاييس لا تزال صالحة للموازنة والتفضيل بين الشعراء.

المبحث الثالث: القضايا النقدية في الكتابين:

أفرزت قضية الطبقات والاختيارات الشعرية والتراجم عند نقاد الأدب العربي القديم قضايا نقدية مهمة، برزت في مقدمات كتب الطبقات التي كشفت عن مذاهب أصحابها، والأسس التي اعتمدوها في الاختيار والتصنيف.

ومن أبرز القضايا التي كشفت عنها مقدمة ابن سلام في طبقاته:

أ- ثقافة الناقد الأدبي:

كان ابن سلام أول من تنبه إلى استقلال النقد الأدبي، أي أن عملية الحكم على الشعر والشعراء بحاجة إلى ناقد متخصص متمرس، حيث قرر أن الشعر صناعة لها أهلها، بقوله: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، ومنها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره[١]. ومن ذلك الجهبذة [٢] بالدينار والدرهم، لا نعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز [٣]. ولا وسم [٤]، ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها [٥]، وزائفها، وستوقها[٦]، ومفرغها [٧]، ومنها البصر بغريب النحل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه، واختلاف بلاده، وتشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل مصنف منها إلى بلده الذي خرج منه ..." [٨].

لقد جعل للشعر- أي لنقده والحكم عليه- صناعة يتقنها "أهل العلم بها"، مثلما أن ناقد الدرهم والدينار يعرف صحيحهما من زائفهما بالمعاينة والنظر، ولعله كان يرد بهذا على من يتطاولون إلى الحديث في نقد

---

(١) يبصره: يعرفه ويدرك حقيقته.

(٢) الجهبذة هنا: نقد الزيوف، والصحاح من الدنانير والدراهم.

(٣) الطراز هنا الصوم.

(٤) الوسم: ما يسك عليه من صور أو نقش أو كتابة.

(٥) البهرج: الرديء.

(٦) الستوق: المكون من ثلاث طبقات.

(٧) المفرغ: المصمت المصبوب في قالب ليس بمعروف.

(٨) طبقات فحول الشعراء، ١/٥.

الشعر من معاصريه، وهم لا يملكون ما يسعفهم على ذلك، ولكنه بدلاً من أن يصرح بالهجوم عليهم وجه نقده إلى ابن إسحاق كاتب السيرة "الذي أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه"[١]. وشمل بحملته جميع "الصحفيين" الذي يأخذون علمهم من الدفاتر"، ولو كان الشعر مثل ما وضع ابن إسحاق، ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم" [٢]. وفي هذا نقل ابن سلام ميدان الخصومة بين الشعر القديم والمحدث، وجعلها حول الناقد البصير وغير البصير، إذ لم تكن المشكلة في نظره مشكلة قدم وحداثة، ومن هذين القولين نستدل على أن ابن سلام لا يعني في كلامه كل العلماء والرواة، بل إنه ميز صنفين من الرواة والعلماء، وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر، ولا يضبط الشعر إلا أهله" [٣]. وذكر ابن سلام كثيرًا من هؤلاء العلماء؛ كأبي عمرو بن العلاء، وابن أبي إسحاق الحضرمي، ويونس بن حبيب.

وهذا يعني أن ابن سلام أكد منذ البداية أن ميدان الأدب لا يدخله إلا من ملك أدواته وآليات التعامل مع أدبائه، وأن النقد علم كسائر العلوم له أصوله وقواعده.

وهو في ذلك لا يكاد يختلف في النظرة عن نقاد العصر الحديث، إلا أن نقاد العصر الحديث ربما كانوا في الدعوة إلى توسيع ثقافة الناقد أكثر إلحاحًا [٤].

وبما أن أية صناعة لا يستطيع كل واحد أن يلم بها، فكذلك الشعر لا يستطيع معرفته والحكم عليه إلا أهله، ومن رسخت أقدامهم فيه، ويستشهد على ذلك بما دار بين خلف [٥] وآخر، إذ قال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر، أستحسنه، فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك"، قال: إذا أخذت درهمًا فاستحسنته، فقال لك الصراف: إنه رديء، فهل ينفعك استحسانك إياه؟" [٦].

وفي هذا بيان لأهمية وجود الناقد المتمرس المثقف، كي يستطيع غربلة الشعر، واستخلاص الجيد منه، وتأكيد على التخصص في النقد الأدبي، واحترام آراء النقاد.

وابن سلام حين يقرر أن الشعر ثقافة، فهو يؤكد على وجوب حصول الناقد على حظ وافر من الثقافة والمعرفة؛ حتى يستطيع من خلالها الحكم الصحيح والغوص في خفايا هذه الصنعة.

والناقد الأدبي له القدرة على تمييز جيد الشعر من رديئه، والتحقق من صحة نسبة البيت إلى صاحبه، وسلامة روايته وصدق راويه، هذه قضية لم تكن واضحة كل الوضوح مما جعل العلماء يختلفون في تقدرها والنظر إليها، ولكن ابن سلام يقرر أن ما يتفق عليه العلماء، لا يحق لأحد الخروج عليه، ويقول: "لقد اختلف

---

[١] نفسه، ٥/١.

[٢] نفسه، ٥/١.

[٣] المرجع السابق، ص ٦٠.

[٤] راجع: دراسات في علم النفس الأدبي، ١٥٩، من الوجهة النفسية، ص ١٢٦.

[٥] خلف الأحمر: أحد الموالي، حفظ كثيرًا من أدب الجاهلية، وكان قديرًا على تمييز الأشعار، ت ١٨٠هـ.

[٦] طبقات فحول الشعراء، ٧/١.

العلماء بعد في بعض الشعر، كما اختلف في سائر الأشياء، فإنما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج عليه"[١]. فهو يمنح الناقد البصير "سلطانًا مطلقًا"، فمتى قال برأي في أمر وجب على الآخرين أن يأخذوا بحكمه؛ لأنهم لا يحسنون ما يحسنه.

فهو يؤكد تكرارًا على أحقية أهل الصنعة التصدي لها دون غيرهم من الناس، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم أن يخالف ما أجمعوا عليه.

ب– قضية توثيق النص الأدبي:

تكلم ابن سلام عن قضية الشعر الموضوع المفتعل في مقدمة كتابه، حيث قال: "وفي الشعر المسموع مُفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حُجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يُضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف"[٢]. وبرهن على وجود الوضع بأدلة عقلية ونقلية واضحة، منها قوله: "فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، وأردوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، م كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال" [٣].

هكذا دلل ابن سلام على قضية الوضع والانتحال، وأرجع ذلك إلى أغاليط الرواة، ووضع الوضاعين، وآراء القبائل، وغلبة الأهواء المغرضة على أقوالهم، واستدل على هذا بشعر طرفة وعبيد المتداول بين الرواة قلته وغثاثته، ويعلل لهذا باضطراب أحوال العرب لمجيء الإسلام، وعدم تدوينهم للشعر [٤].

ونصح ابن سلام بأن يأخذ الناس عن العلماء بالشعر؛ حيث قال: "فللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم"[٥]. لا من الصحف أو الكتب"، وقال: "وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة، ولا يروى عن صحفي" [٦].

وفي عرضه لهذه القضية يضع ابن سلام مقاييس لكشف الانتحال منها:

---

(١) نفسه، ١– ٤.

(٢) نفسه، ٤/١.

(٣) نفسه، ٤٩/١.

(٤) نفسه، ٢٣/١.

(٥) نفسه، ٦/١.

(٦) الصحفي: الذي يأخذ عن صحيفة، لم يعرض على العلماء، ولم يتلق علمه بالرواية.

١. معرفة حياة الشاعر ونشأته وميوله السياسية أو المذهبية، فنجده يشكك في صحة الشعر المنسوب للنابغة الجعدي في مدح مروان بن الحكم (لأن النابغة كان علوي الرأي) [١]. فقال النابغة الجعدي:

فمَنْ راكبٌ يأتِي ابــنَ هِنــدٍ بحَــاجَتي ومــروان والأنبــاء تنمــى وتجلــب

ويخبرُ عني مَا أقــولُ ابــنَ عَــامرٍ فنعْمَ الفتَى، يَــأوي إليــه، المُعصَــبُ

وقال ابن سلام: وأنا منها في شك، ولكنه قال ما لا أشك فيه [٢].

٢. معرفة الخصائص الفنية والأسلوبية للشاعر، فيشير إلى مكان من وضع داود بن متمم بن نويرة على شعر والده قائلاً: "فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضمها لنا، إذا كلام دون كلام متمم" [٣].

٣. عدم قبول كل ما يروى إذا تعارض مع العقل ومع الحقائق التاريخية والواقع الحياتي لعصر الشاعر، وخاصة إذا جاء من غير متخصص في الشعر. فالشعر صناعة وثقافة، ينهض العلم به على المعرفة، وتعمق معرفته بالتجربة، واقتحام غير المتخصصين من أهل التاريخ ميدانه، ويعد من أبرز أسباب الانتحال، ويضرب لذلك مثلاً بمحمد بن إسحاق ابن يسار، مولى آل مخرمة، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر عنها ويقول: لا علم لي بالشعر، أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرًا، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ". ولم يدع ابن سلام الأمر دون نقاش، بل دلل على بطلانه مستعينًا بالتاريخ، وبما ورد في القرآن الكريم في تصويره ذلك التاريخ، ثم يتوجه إلى ذلك الراوي ويخاطبه، فيقول: "أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ ألوف السنين؟ ألا يتذكر قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ [٤]. وقال في عاد: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [٥]" [٦].

٤. الراوي ودوره في رواية الشعر والزيادة فيه، حيث عد ابن سلام "حماد الراوية" أول الرواة الذين جمعوا أشعار العرب "كان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحل غير شعره، ويزيد في الأشعار".

---

[١] طبقات فحول الشعراء، ١٠٨/١.

[٢] نفسه، ١٠٨/١.

[٣] نفسه، ٤٠/١.

[٤] سورة النجم، الآيتان (٥٠، ٥١).

[٥] سورة الحاقة، الآية (٨).

[٦] طبقات فحول الشعراء، ٨/١.

ومن أبرز القضايا النقدية في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة:

(١) أضرب الشعر:

بعد التأمل في الشعر وأموره من جهة التدبر، استطاع ابن قتيبة أن يؤسس مقاييس للشعر انطلاقا من قضية (اللفظ والمعنى)؛ حيث قال: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب"، فكلمة تدبرت تدل على أن هناك تفكيرًا ورويًا، وهناك إمعان نظر وتدقيق، وبصفة عامة هناك مقومات للنقد؛ فابن قتيبة كان على وعي تام بمعاني الشعر وألفاظه.

أ- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه:

ويمثل له بأبيات تقوم على الحكمة وإصابة الغرض، كقول حميد بن ثور ينظم حديثًا للنبي (ﷺ):

أرَى بَصَرى قد رابَنــي بعــدَ صِـحةٍ وحَســـبُك داءً أن تصِـــحَّ وتَسْـــلَمَا

أو ترسم صورة أخلاقية كقول الشاعر في ممدوحه:

يُغضِي حياءً ويُغضَــى مــن مهابتِــهِ فمَـــا يُكلَّـــم إلا حِـــينَ يَبتسِـــمُ

الذي يعلق عليه: "لم يقل في الهيئة شيء أحسن منه" [١].

ب- ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول الشاعر:

ولما قضَينا مِــن مِنَــى كُــلَّ حاجَــةٍ وَمَسحَ بالأرْكــانِ مَــنْ هُــو مَاسِــحُ

وشُدتْ على حُدْبِ المهــاري رحَالُنــا ولا ينظرُ الغَادي الــذي هُــو رائِــحُ

أخَــذْنَا بــأطرافِ الأحَاديــثِ بينَنَــا وَسَــالتْ بأعنــاق المطــيِّ الأبَــاطِحُ

ويعلق عليه بقوله:

"هذه الألفاظ كما ترى أ؛سن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعانينا أبلنا الإنضاء، ومضى الناس لا ينظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأباطح، وهذا الصنف في الشعر كثير ..." [٢].

ونلاحظ أن ابن قتيبة يفصل بين اللفظ والمعنى، ويجعلهما مكوني الشعر الأساسيين، ويحدد ثلاثة عناصر في الحكم على اللفظ، وهي:

العنصر الأول: المخرج، أي المكان الذي تنبجس منه الحروف، فكلما تقاربت الحروف في المخرج، حصل هناك لبس وتعذر في النطق.

والعنصر الثاني في الحكم على اللفظ يتمثل في المطلع، فمطالع الأبيات متسقة ومتراصة ومتلائمة.

---

(١) الشعر والشعراء، ص ٦٥.

(٢) نفسه، ص ٦٧.

ويأتي العنصر الثالث متمثلاً في المقطع، حيث يرى ابن قتيبة أن كل مقطع من مقاطع الأبيات يتآلف مع الآخر، كما أن كل واحد يكمل الآخر.

ويقصر ابن قتيبة وظيفة الألفاظ على التأثير الصوتي، ثم نجده يساوي ويقصر وظيفة الألفاظ على التأثير الصوتي، ثم تجده يساوي بين الشعر وترجمته، وفي هذا إنكار لفاعلية الخلق الشعري بمسألة الشعر بأي الوسائل الأخرى. ويتابعه أبو هلال العسكري مع زعمه بأنه ممن يقدرون قيمة الصياغة، ويقفون إلى جانب اللفظ[١]. إلى أن يأتي عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) فيبين القيمة التعبيرية لهذه الصياغة، وفائدتها للمعنى الشعري [٢]. هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يقرأه كل منا من معنى، ويبقى بعدها الشعر المعبر عن موقف إنساني ثري العطاء، متنوع الدلالات.

ج- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة:

مَـا عَاتَـبَ المَـرْءَ الكـريمَ كنفْسِـهِ والمرءُ يُصـلحُهُ الجلـيسُ الصـالحُ

فهو وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق [٣]، وكقول الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ فـي الشـبابِ كأنَّـهُ ليـلٌ يَصـيحُ بِجانبَيْـهِ نَهَـارُ [٤]

فإذا اعتمدنا على بيت "لبيد" يمكن أن نهتدي إلى المعنى، وما فيه من حكمة دون تعب، إلا أن ألفاظه جاءت معتادة، أما قول الفرزدق: "والشيب"، فقد عده عبد القاهر الجرجاني في دلائله ضمن الأبيات الحسنة، التي تضمنت أحسن تشبيه، منها ما جاء جيد المعنى، إلا أن الألفاظ معتادة [٥].

د- وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأة:

وفُوهَـا كأقَـاحِيّ غَـذَاهُ دائـمُ الهَطْـلِ

كَمَـا شـيبَ بـراح بَـا ردٍ مِـنْ عَسَـل النَّحْـلِ

ومنه قوله:

اسْـتأثر اللهُ بالوفـاءِ وبالـ حَمْـدِ وولَّـى الملامَـة الـرَّجُلا

---

[١] الصناعتين، ص ٥٨.

[٢] أسرار البلاغة، ص ١٦، ١٧؛ دلائل الإعجاز، ص ٥٨- ٦٠.

[٣] الشعر والشعراء، ص ٦٨.

[٤] نفسه، ص ٢٦.

[٥] دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٤١.

وهذا الشعر بيِّن التكلف، ردي الصنعة، وكذلك "أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعي، وشعر ابن المقفع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه كان أجودهم طبعًا، وأكثرهم شعرًا[١].

ومهما كان هذا التقسيم، فهو تقسيم علمي حاول تحديد درجات الشعر، وليس جانب جودة اللفظ وصحة المعنى، فقط هما معيار لمعرفة درجة الشعر، حيث أضاف ابن قتيبة معايير أخرى كالإصابة في التشبيه، أو خفة الروي، أو طرافة المعنى المستغرب، أو لأسباب خارجية أخرى، كأن يكون صاحبه مقلاً، أو عظيمًا في الموقع الاجتماعي "نبل القائل"، وهذه أشياء لا تحدد الشعر، وإنما تحدد أسباب الرواية، أو الاستحسان لبعض ضروبه [٢].

وقد وُفّق ابن قتيبة في التمثيل والتحليل على هذه المعايير؛ مما يشير إلى دوره النقدي المتميز في مجال دراسة الشعر، وتحديد درجاته.

٣- الطبع والتكلف:

أ- التكلف: الشاعر المتكلف عند ابن قتيبة هو كل شاعر قام بتجويد شعره، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر" [٣]. إلا أنه في موضع آخر من الكتاب يريد بالتكلف معنى آخر هو المشقة والعناء، إذ "كان الفرزدق يقول أنا أشعر تميم، وربما أتت علي ساعة، ونزع ضرب أسهل عليَّ من قول بيت".

ومن الأساليب التي أدت إلى ذيوع هذا النمط من الشعر المتكلف، هو "الطمع"، بمعنى شيوع شعر التكسب؛ لذلك حاول ابن قتيبة أن يضع معايير زمنية مرتبطة بقول الشعر، وهي أربعة معايير على غرار الضروب الأربعة، وهي:

- أول الليل قبل أن تغشى الكرى.
- صدر النهار قبل الغداء.
- يوم شرب الدواء.
- الخلوة في الحبس والمسير.

والمستخلص في تحديد هذه العلل أن ابن قتيبة يريد أن يشير بهذه الإشارات الدقيقة إلى أن الأشعار تختلف أوقاتها، كما تختلف نفسية قائلها باختلاف زمن قولها.

---

(١) الشعر والشعراء، ص ٢٧، ٢٨.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ص ١٠٢.

(٣) نفسه، ص ٤١.

ب- الطبع: وقد ربطه ابن قتيبة في هذه الفقرة بسهولة النظم، بل بتدفقه وارتجاله، قال عن الشاعر المطبوع: "من سمح بالشعر، واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع، ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر" [١].

ومراد هذا النص أن المطبوع من الشعراء هو من يقول الشعر على طبيعته، ولا يجهد نفسه أثناء قوله. ومعنى "لا يتلعثم إذا سئل" أي لا يتردد في قول الشعر، وذلك لأن المطبوعين من الشعراء متفاوتون، وفي إتقانهم لأغراض الشعر مختلفون، وقد صنفهم ابن قتيبة إلى أربعة أصناف:

١. شاعر يسهل عليه المديح.
٢. شاعر يعسر عليه الهجاء.
٣. شاعر تتيسر عليه المراثي.
٤. شاعر يتعذر عليه الغزل.

وهذه إشارة إلى تفاوت القدرات الفنية لدى الشعراء، وأن لكل شاعر جانبًا يجيد فيه أكثر من سواه، وينتبه ابن قتيبة، وهو يناقش هذا التفاوت، إلى ما نسميه بلغتنا الحديثة "الصدق الفني"، الذي لا يحق لنا أن نبحث وراءه عن "الصدق الواقعي" [٢]. فيقول: "وكان الفرزدق زير نساء، وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب، وكان جرير عفيفًا، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيبًا".

فالطبع وحده لا يكفي لقول الشعر أو نقده، وإنما يحتاج معه الشاعر أو الناقد إلى ثقافة تمده بالفكرة، "وكل علم محتاج إلى السماع، وأحوج إلى ذلك علم الدين، ثم الشعر؛ لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشي ...".

ورغم هذا التفريق بين التكلف والطبع، إلا أن وصف ابن قتيبة لمنقحي الشعر بالتكلف لا يمكن الأخذ به مبدئيًا، وهذا حكم ينم إلى حد بعيد عن عدم التمييز بين التكلف والتنقيح.

---

[١] الشعر والشعراء، ص ٤١. والزحير: إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة.

[٢] التراث النقدي نصوص ودراسة، د. رجاء عيد، الإسكندرية: منشأة المعارف، ص ١٢٨.

٣- عيوب الشعر:

بعد كل ما ذكرناه، انتقل ابن قتيبة إلى ذكر عيوب الشعر، وهو ما يوحي إلى أن نظرة الكاتب للعشر كانت نظرة علمية موضوعية صرفة، بحيث لا يحكم على الشعراء انطلاقا من ذوقه فحسب، بل انطلاقا من المعايير التي حددها هو نفسه كذلك. أما العيوب التي وقف عندها ابن قتيبة فهي خمسة عيوب:

أ- الإقواء والإكفاء:

يشير ابن قتيبة إلى أن الإقواء هو اختلاف الإعراب في القوافي، كأن يأتي الروي في البيت الأول مكسورًا، ويأتي في الآخر مضمومًا، وقد عدوه عيبًا من عيوب الشعر؛ لشدة ارتباطه بعنصر الموسيقى.

وقد كان النابغة الذبياني يقوي في شعره كثيرًا، ومنه قوله:

سَقطَ النصيفُ ولمْ تُردْ إسقاطَه فتناولتْهُ واتقتْنَا باليَدِ

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللطافَةِ يُعْقَدُ

وقد استمر النابغة في هذا العيب حتى أسمعوه إياه في غناء جارية بالحجاز، فقال: "قدمت الحجاز وفي شعري صنعة، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس" [(١)].

إلا أن حسب ابن قتيبة هناك كثير من الناس من ي عد الإقواء إكفاء، فيراد به "نقصان حرف من فاصلة البيت، كقول حجل بن نضله، وكان قد أسر بنت عمرو بن كلثوم، وركب بها المفاوز، واسمها النوار، قال:

حَنَّتْ نَوارُ ولات هَنَّا حَنَّتِ وَبَدا الذي كَانتْ نَوارُ أجَنَّتِ

لَمَّا رَأتْ مَاءَ السَّلا مَشرُوبَها والفَرْثُ يُعْصَرُ فِي الإنَاءِ أرَنَّتِ

سمي إقواء؛ لأنه نقص من عروضه قوة، وكان يستوي البيت بأن تقول متشربًا" [(٢)]. ومهما كان الاختلاف بين الإقواء والإكفاء، فإنه عيب من عيوب الشعر، والفحل من الشعراء لا يحق له أن يقع فيها.

ب- السناد: وهو اختلاف إرداف القوافي، والملاحظ في تعريف ابن قتيبة للسناد أنه اقتصر في هذا العيب على الردف فقط، وهو أشمل وأعم مما تصوره، فالعيب قد يطال الحذو أيضًا، وهو ما يطلق عليه (سناد التوجيه).

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ٦٧/١، ٦٨؛ الشعر والشعراء، ١٠١/١؛ الموشح، ص ٣٧.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٤٥.

ج- الإيطاء: يعرفه ابن قتيبة بأنه إعادة القافية مرتين أو أكثر، وهو بحسبه ليس عيبًا. وقد اشتق الإيطاء من المواطأة، بمعنى الموافقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [١].

وقد أطال العلماء في الوقوف عنده، ورأى الدكتور شكري عياد أن صاحب الشعر الحر يعتمد الإيطاء لغرض آخر، قال الشاعر: يزيد نغمة خفوتًا بلجوئه المتكرر إلى الإيطاء، فالإيطاء إذ يوجه الذهن إلى تماثل المعنى يصرفه عن تماثل النغم" [٢]؛ وبذلك فالسناد يطال حروف القافية بأكملها، ولا يقتصر على الردف فقط.

د- الإجازة: يقال إن الإجازة هي أن يكون الروي مقيدًا، ويكون الردف مختلفًا من بيت إلى آخر، ويظهر من خلال الأمثلة التي قدمها ابن قتيبة أنه لم يذهب مذهب العروضيين في الردف، والردف عند العروضيين لا يمكنه إلا أن يكون ألفًا أو ياءً أو واوًا لا يفصل بينها وبين الروي فاصل، وقد مثل ابن قتيبة لذلك بقول امرئ القيس:

لاَ يَـــدَّعِي القَـــوْمُ أنِّـــي أفِـــرْ

فكسر الردف، وقال في بيت آخر:

وَكِنْـــدَةُ حَـــوْلِي جَميعًـــا صُـــبُرْ

فضم الردف، وقال في بيت آخر:

أَلْحَقْـــــتَ شَـــــرًا بِشَـــــر[٣]

ففتح الردف.

هـ- الإعراب: من العيوب اللغوية، وهو أن يعمد الشاعر إلى تسكين ما لا يجوز تسكينه، كقول لبيد:

تَـــرَّاكُ أمْكِنَـــةٍ إذَا لَـــمْ أرْضَـــهَا أو يَعْتَلِقْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَامُهَـا

فسكن الفعل المضارع (يعتلق)، ولا يجوز ذلك، لأنه لم تدخل عليه أداة من أدوات الجزم، إلا أن ابن قتيبة يرى أن (أو) بمنزلة (حتى)، وفي هذا الجانب كذلك تحدث عن المقصور والممدود بقوله: "وقد يضطر الشاعر فيقصر الممدود، وليس له أن يمد المقصور" [٤].

ومجمل القول إن هذه المآخذ والعيوب التي ذكرها ابن قتيبة في مقدمة كتابه، تتركز في محورين: المحور الأول خاص بالعيوب الموسيقية، وهي تتصل في مجملها بالقافية؛ كالإقواء والإكفاء والسناد والإيطاء والإجازة، والمحور الثاني عرض لعيوب الإعراب والضرورات الشعرية وأجاز بعضها، كقصر

---

[١] سورة التوبة، الآية (٣٧).

[٢] القافية في العروض والأدب، حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١٠٨.

[٣] الشعر والشعراء، ص ٤٦.

[٤] المرجع السابق، ص ٧٤.

الممدود، وصرف الممنوع من الصرف، وترك الهمز من المهموز. ونبه إلى بعض ما لا يجوز للمحدث أن يتبع المتقدم كاستعمال وحشي الكلام، وما قل تداوله من لغة العرب، وإبدال بعض الحروف من بعض؛ لتعد بحق أكبر دليل على أنه سيبلور مفهومًا جديدًا للنظر إلى الشعر، ألا وهو (النقد)، وإن لم يشر إليه في كتابه، إلا أن عمله يُعد عملاً تاريخيًا ونقديًا في الوقت عينه.

٤- بناء القصيدة:

سعت الدراسات الشعرية إلى إظهار وتبيين الصورة المثلى التي تنبني عليها القصيدة العربية، انطلاقًا مما أثر من نماذج مثالية تعد بحق من روائع التصوير البياني؛ حيث رسم النقاد العرب مخطط القصيدة رسمًا واضحًا، وبينوا موضوعاتها، وخصائصها الفنية، وكان ممن نهجوا هذا الطريق ابن قتيبة في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء"؛ إذ استخرج من الأنماط المتبعة في مدائح الجاهليين وتابعيهم قانونًا عامًا ينبغي للشعراء أن يلتزموا به.

ويُعد نص ابن قتيبة من أقدم النصوص التي حاولت تفسير بناء القصيدة العربية الجاهلية في تسلسله المنطقي، وذلك حيث يقول: "... وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين (عنها)، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي (به) إصغاء الأسماع (إليه)، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما (قد) جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم، حلال أو حرام، فإذا (علم أنه قد) استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل، وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذًا (علم أنه قد) أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل"، ثم يضيف: "فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد ..." [١].

[١] الشعر والشعراء، ١/٢٠- ٢١.

فهو يشير إلى أن الشاعر الجاهلي استهل القصيدة بالوقوف على الأطلال، ووصل ذلك بالنسيب لمراعاة حالة السامع النفسية، الذي قصد الإصغاء إليه، ومشاركته آلامه وإحساسه، لأنه يعاني شدة الشوق وألم الفراق، وما أن يتأكد الشاعر أنه جذب انتباه المتلقي إلا وينتقل إلى الرحلة، وهي رحلة مليئة بالمشاق والمعاناة والصعاب، فيكون بذلك قد انتقل بالمتلقي من حالة المشاركة الوجدانية إلى حالة العطف والإشفاق. وفي النهاية ينتقل إلى الغرض والشاعر المجيد من يهتم بهذا النظام، ويراعي حالة السامع، فلا يطيل فيمل، ولا يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد. وقد أشار إلى ذلك إحسان عباس بقوله: "فابن قتيبة يؤمن أن بناء القصيدة على هذه المقدمات إنما كانت تستدعيه الرغبة في لفت الانتباه، وإشراك السامعين في عاطفة الشاعر، وهي عاطفة سهل المشاركة فيها، لأنها قريبة من القلوب جميعًا، كما يرى أن مبنى القصيدة لا بد أن يظل متناسب الأجزاء معتدل الأقسام، فلا يطيل في قسم منها فيمل السامعين، ولا يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد" [١].

وتبدو هذه النصائح الأساسية للشاعر المجيد، وتتركز في:

أولاً- اتباع منهج القصيدة الجاهلية؛ لأنه دليل على مقدرة الشاعر.

ثانيًا- إشراك السامع في عاطفة الشاعر.

ثالثًا- مراعاة التناسب بين أقسام القصيدة.

رابعًا- مراعاة مطابقة الكلام لحال المستمعين، وإعطاء الشعر على قدر أذواقهم ودرجة استعدادهم، فلا يطيل فيمل، ولا يقطع وفيهم حاجة إلى المزيد.

ثم يحاول ابن قتيبة أن يلزم الشعراء بلزوم معانٍ محددة داخل القصيدة، يقول: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأن المتقدمين قد رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة" [٢]. ونلاحظ ما يأتي:

أن محاولة إلزام الشاعر بمعانٍ محددة لا تتفق مع حرية الإبداع، وإن اتفقت مع الشكل والإطار الخارجي للقصيدة.

---

[١] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م، ص ١١٢.

[٢] الشعر والشعراء، ١/٧٦- ٧٧.

أما إذا كانت القضية تقوم على فهم أن الفن صناعة، وعلى أساس من معانٍ محددة، فقد يفضل المحدث قديمًا إذا حافظ على المعنى القديم، فحقق التقليدية التي اشترطها، ثم زاد عليه فاختزن اللفظ أكثر قدر من المعنى، فالشعر – كما قلنا– ديوان العرب وسجلهم، يقول ابن قتيبة: "وكان الناس يستجيدون للأعشى قوله:

وَكَـــأسٍ شَـــربْتُ عَلَـــى لَـــذَّةٍ وَأُخْـــرَى تَـــداوَيْتُ مِنْهَـــا بِهَـــا

إلى أن قال أبو نواس:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـرَاءُ وَدَاوِنِـي بِـالَّتِي كَانَـتْ هِـيَ الـدَّاءُ

فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن في صدره وفي عجزه، فللأعشى فضل السبق عليه، ولأبي نواس فضل الزيادة فيه" [١]. وفي هذا تقدير للقديم لسبقه إلى المعنى، وتقدير للمحدث لأنه أكسب جديدًا للمعنى.

وتبدو أيضًا متابعة شكلية لابن سلام في نقله لمجادلات الفرزدق مع النحاة، وموافقته لهم، وفي حكمه على ذي الرمة "كان أحسن الناس تشبيهًا، وأجودهم تشبيهًا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة ... فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذاك أخره عن الفحول، فقالوا: "في شعره: أبعار غزلان ونقط عروس" [٢]. ربما يرجع هذا إلى أمرين:

١. سيطرة مفهوم الصناعة الذي يتطلب الإجادة في فنون متعددة، وتحتاج إلى إرادة ووعي.
٢. سيطرة فكرة أن الشعر ديوان العرب، "عصر التدوين اللغوي"، فكانت الحاجة للشاهد والمثل، وانعكست هذه الحاجة لأشعارهم في التأليف إلى أهمية فنية تستدعي تقديمًا فنيًا.

---

[١] نفسه، ٧٩/١.

[٢] نفسه، ٩٤/١.

الخاتمة

يتميز كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي بوجود مقدمة فنية، تمثل الغرض من تأليف الكتاب، وهو ذكر العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها، من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، وبيان منازلهم، والاحتجاج لكل شاعر بما وجد له من حجة، وما قاله فيه العلماء، وتبين منهج الكاتب في تناوله للشعر والشعراء، وتعرض أهم القضايا النقدية التي شغلت صاحب الكتاب.

كما يتميز كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة بوجود مقدمة نقدية، عرض فيها المؤلف أصول النقد، ومواصفات الشعر والشعراء، وغير ذلك من الآراء والنظريات التي عرضنا لها، كما ركز على الشعراء وأخبر عنهم، وعن أزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم، وذكر ما يستحسن من أخبارهم، وما يستجاد من شعرهم، وما أخذته عليهم جمهرة العلماء من غلط أو خطأ في اللفظ والمعنى دون التزام بترتيب زمني للشعراء.

لقد وضع ابن سلام أساسًا علميًا للدراسات في تاريخ الأدب العربي، الذي امتزجت أصوله بأصول النقد الأدبي، ومهد الطريق أمام دراسات موضوعية دقيقة في تاريخ الأدب العربي، وذلك في إطار وضع تاريخ للشعر العربي منذ فترة متقدمة على العصر الجاهلي، وحتى أواخر العصر الأموي، حاول أن يجمع الشعراء الفحول، وأن يرتبهم ويقسمهم على طبقات معتمدًا في ذلك على أسس فنية واضحة ومحددة؛ حتى تتكامل صورة تلك الفترة الزمنية التي درسها، ويحتل كل شاعر الطبقة التي يستحقها في عصره، وتليق بمكانته الشعرية.

ويمثل الكتاب صورة لحياة النقد منذ بداياته الأولى في العصر الجاهلي وحتى نهاية القرن الثالث الهجري، ولأذواق أصحاب الطبقات، حاول ابن سلام جعل النقد عملاً مستقلاً، له رجاله المستقلون، ومنحهم "سلطانًا مطلقًا"، فمتى قالوا برأي في أمر وجب على الآخرين أن يأخذوا بحكمهم.

وتمثل قضية توثيق النص والتأكد من صحة نسبته إلى صاحبه أولى خطوات المنهج التاريخي في دراسة الأدب، حيث وضع مقاييس لكشف الوضع والانتحال، ميز من خلالها بين نوعين من الرواة (الموثقون والوضاعون)، واتخذ من معرفة حياة الشاعر ونشأته وميوله السياسية وخصائصه الفنية والأسلوبية دليلاً على الانتحال، ورفض كل ما يروى إذ تعارض مع الحقائق التاريخية والواقع الحياتي لعصر الشاعر.

و"ابن قتيبة" في كتابه "الشعر والشعراء" شاهد على مرحلة متطورة في النقد؛ إذ أنه أثار قضايا نقدية لا تقل أهمية وقيمة على ما أثاره ابن سلام، فقد تحدث في قضايا الشعر والشعراء، وقسم الشعر إلى أربعة أضرب من خلال اللفظ والمعنى والصلة بينهما، وهي خطوة تتجه نحو البلاغة العربية، وذكر عيوب الشعر، وتركزت في محورين: المحور الأول خاص بالعيوب الموسيقية، والمحور الثاني خاص بالعيوب النحوية والإعرابية، وهو ما يوحي إلى أن نظرة الكاتب للشعر كانت نظرة علمية صرفة بحيث لا يحكم على الشعر انطلاقًا من ذوقه فحسب، بل انطلاقًا من المعايير التي حددها هو نفسه، وأشار كذلك إلى مفهوم الطبع والتكلف في الشعر، وأشار إلى الشاعر متكلفًا ومطبوعًا، وإلى المؤثرات والحوافز التي تفعل فعلها في نفسه، وإلى علاقة الشاعرية بالأزمنة والأمكنة، كما أشار إلى ضرورة التناسب بين الموضوعات في القصيدة الواحدة وتلاحقها في سياق، واعتمادها على وحدة معنوية تقيم التلاحم و"القران" بين أبياتها، وهو في كل ما عرض له أو ذهب إليه، يعزز موقفه بشواهد شعرية وآراء نقدية لسابقيه من العلماء ومعاصريه، يستمد منها آراءه الخاصة، وبروحه العلمية رتب كتابه ونظمه، وضمنه أسسًا فنية وقواعد نقدية قيمة، وإضافات في الأدب وتاريخه جعلت من "الشعر والشعراء" مرجعًا يعود إليه كل ناقد وأديب ومؤرخ أدب ممن أتوا بعده حتى يومنا هذا.

لقد أفاد هذان الكتابان النقد الأدبي بما احتوياه من قضايا نقدية مهمة، تخص الشعر والشعراء، كما أنهما أفادا تاريخ الأدب العربي بما احتوياه من أخبار وتراجم، كشفت عن العصر وخصائصه، كما أنها جمعت أكبر عدد من الشعراء، فابن سلام ترجم لمائة وأربعة عشر شاعرًا، وترجم ابن قتيبة لمائتين وستة من الشعراء، ولولا هذه الكتب لفاتنا كثير من الأخبار والأشعار، ولضاع ذكر كثير من الشعراء، رغم احتمال ضياع أجزاء من هذه الكتب، ولو اكتملت لاكتملت الفائدة.

المراجع والمصادر

- ابن قتيبة العالم الناقد الأديب- عبد الحميد الجندي.
- أساس البلاغة للزمخشري "أبو القاسم جار الله محمود (ت: ٥٣٨هـ)"، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- الأغاني للأصفهاني "أبو الفرج علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ)"، القاهرة، طبعة دار الشعب (د.ت).
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٧٥م.
- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ١٩٩٣م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٢م.
- التراث النقدي نصوص ودراسة، د. رجاء عيد، الإسكندرية: منشأة المعارف، (د.ت).
- دراسة في مصادر الأدب، د. الطاهر أحمد مكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٨، ١٩٩٩م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م.
- شرح نهج البلاغة، لأبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ابن محمد (ت: ٦٥٦هـ).
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٧م.
- طبقات فحول الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣٢هـ)، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، بجدة.
- فحولة الشعراء، المنسوب للأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت: ٢١٦هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين، المطبعة المنيرية، ط١، ١٩٥٣م.
- الفهرست لابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت: ٤٣٨هـ)، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ.
- في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، د. فائق مصطفى وعبد الرضا علي، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.

- القافية في العروض والأدب، د. حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٢م.
- قواعد الشعر، لثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت: ٢٩١هـ)، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.
- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة (ستة أجزاء).
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، شرحه: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط٣، ١٩٤٩م.
- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٠م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٢م.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، لأبي عبد الله المرزباني، المطبعة السلفية، ١٣٤٣هـ.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت: ٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م.
- النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، القاهرة، دار نهضة مصر، (د.ت).